

الفصل الأول

مَرَكَبٌ بَطِيءٌ فِي صِينٍ سَرِيعة

ليس تَعْرُجُ ضفاف نهر هوانجبو Huangpu، الذي يعبر شنغهاي، تَعْرُجاً عادياً. إنه تَعْرُجُ يأخُذُ الألباب. فكانت آثار تيارات التغيير التي عَصَفَتْ بالصين الحديثة مدة قرن ونصف، أكثر وضوحاً على ضفاف شنغهاي من أي مكان آخر. فقد اندفعت القوى الغربية في هجوم ضارٍ في منتصف القرن التاسع عشر من هنا، ثم أدلى اليابانيون بِدَلْوِهِم سنة 1895م. وأسس الأجنبي دولةً في مدينة يمكن وصفها بأي شيء إلا أن تكون مستقلة، ليديروا منها تجارتهم الصينية. واختلطت الأذواق الغربية مع الصينية على مدى واسع حتى نرى رصيف الميناء بِنْد Bund، الذي كان يومئذ المركز التجاري في شنغهاي، على الضفة الغربية للنهر، أشبه بجادة رئيسة تزينها الأضواء في عاصمة أوروبية كبيرة.

كانت شنغهاي في أوائل القرن العشرين تعد واحداً من أهم خمسة مراكز تجارية في العالم - قبل أن تفك الصين ارتباطها بالعالم في ثلاثينيات القرن العشرين - إلى جانب لندن، ونيويورك، وباريس، وطوكيو. وكان مينائها الميناء الثاني ازدحاماً في العالم، وضمَّت مَصَارِفُهَا، التي قامت ضمن الخَليط المفروض من قصور المال الأوروبية الضخمة والأبراج الضئيلة على الرصيف، فكانت تعاملات تجارية مغرية تجري مع الغربيين واليابانيين الذين يبيعون الآلات، والنسيج القطني، والأدوية، والأفيون. وكان نتاج مصانع الصين يَفِيضُ بالثياب، والورق، وسواهما من سِلَعٍ سهلة التصنيع بأسعار لا يستطيع الغريباء مضاهاتها في أوطانهم. فكانت كميات ضخمة من السِّلَعِ تنتقل في الاتجاهين معاً.

وقد أنشأ الغرباء في شنغهاي ميناءً عالمياً، غير أنها سرعان ما تحوّلت إلى مغناطيس يجذب الصينيين الذين يرغبون في العمل في المصانع، أو في الحراسة في فترات الاضطرابات الاجتماعية. وقد أسهمت الهجرة الواسعة إلى شنغهاي، والخوف من أن يبتلع الغرباء مدينتهم، في التوجّه إلى نظام قسّم المدينة إلى مناطق مُنْفَصِلَة؛ فأقسام من المدينة لها بوابات خاصة بالمستعمرين، عُرِفَتْ بأنها امتيازات، والباقي للصينيين. وتتجلّى المفارقة في أن التقسيم قد أوجد أيضاً أول مدينة حديثة في الصين عندما فرض الأوروبيون حكماً يتمتع باستقلال محلي رسمي على شنغهاي. ولم يكن للمدن الصينية فيما مضى برغم أن كثيراً منها كان كبيراً، وكانت حكومات تتمتع باستقلال محلي. وبلغت الانتباه هنا أن كلمة حديث modern بالإنجليزية، قد نُقِلَتْ حروفها إلى اللغة الصينية أول مرة في شنغهاي، فصارت المدينة مُرَادِفَةً للحدثاء.

لقد شَيِّدَتْ هذه المدينة الصينية التي وُلِدَتْ من جديد بإدارة غربية أعلى مباني البلاد، وآوت أبرز مصارفها، وكان فيها حافلات ومياه جارية، وصالونات تجميل، ومقارّ تجارية، وأزياء فرنسية. ولم يكن دعاة الحدثاء في المدينة دائماً من الأوروبيين أو الأمريكيين من النمط الاستعماري التقليدي. فقد كانت شنغهاي الحديثة، منذ أن انطلقت، وطناً لمجموعة صغيرة استثنائية من اليهود. أتى كثيرٌ منهم من العراق، وإسبانيا، والبرتغال، والهند. وأسهمت عائلات هاردون Hardoun وقُدوري Kadoorie، وساسون Sassoon، في بناء عالم شنغهاي الجديد الذي لم يكن غريباً ولا شرقياً.

غير أن المدينة لم تكن حديثة حتى تكفي لغسل الأحقاد القديمة. إذ تُرَوَى قِصَصٌ عن الشاخصة البغيضة على باب حديقة هَنْجِبُو البريطانية British Hangpu Park التي تمنع دخول «الكلاب والصينيين». كانت شنغهاي يومئذ، ولم تنزل، تجمع تناقضات العالم. وكان محور آسية الرأسمالي هذا أيضاً المكان الذي شهد سنة 1921م أول اجتماع للحزب الشيوعي الصيني. وكانت مدينة

شنغهاي موطناً لليائسين. ففي الحرب العالمية الثانية أصبحت المدينة، التي بقيت منعزلة عن الأمم، ملاذاً لثلاثين ألفاً من يهود أوروبا الهاربين من النازية.

واستولى الشيوعيون على البلاد سنة 1949م، وتحولت قوة شنغهاي الإبداعية عن الاستثمار طيلة أربعين سنة تلت. وجمّدت الحياة التجارية، وذوّى برّيق فن العمارة الأوروبية في شنغهاي وأبنيتها القرميدية التي تعود إلى ما قبل 1940 التي كانت تعكس المزيج الدولي للمدينة.

وعادت اليوم شنغهاي المدينة العالمية الأكثر كبرياء وحادثة في الصين. غير أن تاريخ الهيمنة الأجنبية على المدينة ما زال يحمل فيضاً من جراح وطنية صينية. ذلك الأذى الجماعي يساعد في إذكاء توجه الصينيين اليوم، إضافة إلى تناقض الصين في استعدادها لما يمكن أن تعطيه للغرباء ولما تأخذه منهم. كانت شنغهاي قديماً فاسدة غير أنها برّاقة، وهمجية لكنها منمّقة، وبغیضة وإنما مربيحة. وقد اعتادت حكومة الصين أن تخفي هذا الجانب من ماضي شنغهاي، وتستعمل الحكومة ماضي شنغهاي الاستعماري الذي وُصم مرة بعبارة «عاهرة آسيا» لتذكر جمهورها بأن ثمة عالماً معادياً جاهزاً دائماً ومستعداً لإهانة حضارتهم الفخورة.

فإذا كان ثمة من لديه استعداد للقتال فإنهم أهل شنغهاي. إنه استعداد يجمعونه بحماسة شديدة ويحوّلونه إلى ناطحات سحاب. فبرغم شعورهم التاريخي بالمهانة، ربما كان أهل شنغهاي أكثر ثقة - أو أكثر غروراً، كما يقول الصينيون - بين أبناء بلدهم. ويعتقد أبناء شنغهاي أنهم أفضل رجال أعمال الصين، وأكثرهم قدرة على الإدارة، وأكثرهم عوّلّة، وأشدّهم إقداماً على المغامرة. وليس صدفة أن يكون عدد غير متكافئ من القيادة العليا للحزب الشيوعي قد قَدِم من تلك المدينة، أو أن الصين خصت شنغهاي دون سواها لتكون المدينة التي تحل محل هونج كونج مركزاً مالياً كبيراً في البر الرئيس، ثم احتلت موقعها مركزاً من أهم مراكز المال والأعمال في العالم. وهكذا يعد

وسط هوانجبو Huangpu مكاناً ملائماً ليشهد تناغم المدينة وائتلاف الماضي والحاضر. فالمواصلات تزدهم في الطرق المائية كما هي الحال في طرق المدينة المكتظة بوسائل النقل. ورحلة المركب بعد الظهر تقل المسافرين إلى ذُرْوَة ساعة الازدحام المائية، حيث مئات المراكب، بعضها على شكل سمبان مُضَخَّم، وبعضها مثل جبال عائمة من الرمل أو الفحم، تَصْطَفُّ أربعةً أو خمسةً على عرض النهر تحت ظلال سفن شحن عابرة محيطات برتقالية أو مراكب رمادية أنيقة تَبْدُو مصانع عائمة غير أنها تحمل وقوداً ومواد كيميائية.

ومركب النزهة هو قَطْمَران catamaran، غير أن شكله والركوب فيه يشبه ركوب مركب بطيء - مجهَّز بمطعم من ثلاثة أدوار مفتوح من أعلاه. ولولا رأسيّ التين النحاسيتين بعينيهما الجاحظتين يبرزان من مقدمته لكان القارب أشبه بقاعة احتفالات صينية رخيصة الأجر. والمركب المليء بمقاعد كالعروش محفورة على طراز الباروك مُوشَّاة بالذَّهَبِ المكثف. وطاولات الطعام مغطاة بمفارش منشأة غير أنها مُلَطَّخَةٌ بالبُقَع، وطاقم من العاملين بلید، كل ذلك يعطي المركب شكل سفير عائم لقطاع سياحي حكومي، وإمبراطورية في طول البلاد وعرضها تضم المطاعم والفنادق الرديئة. أما خدمة القارب، وهو أحد المشاريع السياحية التجارية الأولى في الصين، فمازالت تُرَوِّج للنسخة الشيوعية من السحر حتى عندما يذرع النهر الرمادي جيئةً وذهاباً ثلاث ساعات ونصف، شاقاً طريقه ببطء نحو تقاطع نهر يانجتز Yangtze وبحر الصين الشرقي.

وبرغم المواصلات النهرية، فقد بَقِيَتْ شِنغهاي مُحتَوَاة بذاتها، يطوّقها ريف زراعي. وعندما بدأت الجولات بالمركب بُعِيدَ تحرُّر الصين الاقتصادي في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، كان المرء يستطيع أن يَمُدَّ بَصَرَهُ خلال الماء ليرى حقول الأرز والخضار، وساحات يربى فيها الدجاج، والخنازير، والإوز، والشَجَرِ الظَّلِيل. فأصبح رصيف الميناء زَرِيئاً إثر عقودٍ من الاحتقار الشيوعي، فلا يَصْلُح لِعَمَلٍ تجاري منذ سنين بعيدة. واستولت الوكالات الإقليمية والإدارية، بما تحمله

من حَقْدٍ على الفنادق والمصارف الأجنبية، على أكبر الأبنية. فعندما ازدَهَرَت شنغهاي في تسعينيات القرن العشرين، بقي رصيف الميناء راقداً، مثل مشهد مدينة في فيلم غير عادي من أفلام هوليوود في الثلاثينيات لم تُعَدْ تُجَدِ قِصَّةَ فيلمٍ أُخرى.

وعندما استعادت شنغهاي مَوْقِعَهَا التجاري، حاولت تَرْمِيمَ بعضِ أَلْقِهَا وحيويَّتها الدولية بتأجير حَيِّزٍ من أبنية الرصيف الكبيرة إلى مطاعم دجاج كنتاكي Kentucky Fried Chicken التي كانت تحمل نكهة الغرب «الفاخرة» عند السكان المحليين في تلك الأيام. أما اليوم، فقد انجلى دجاج كنتاكي عن الرصيف، غير أنه انتشر في أماكن أخرى من المدينة، حيث يعد رفاهية مرغوبة. واكتسب رصيفُ الميناء، في هذه الأثناء، البريقَ الذي يَحْمِلُهُ إلى عواصم العالم متعهدو أسلوب الحياة الدولية. وإنَّكَ تَسْتَطِيعُ أن تجد الآن على الرصيف الشوكولا الإيطالية، وماء إيفيان الفرنسي، وفنادق ومخازن أنيقة، ومطاعم عالمية جاء طُهاؤها الكبار من باريس ونيويورك. ومجمع ترفيهي على الشاطئ يحتل برجاً لمكاتب قديمة كَلَّفَ تجديدها 50 مليون دولار قام بها مايكل جريفيس Michael Graves، وهو من أشهر مهندسي العمارة في العالم. ويضم صالة فنون ربما كانت من أكثر مواقع الاستعراض الذي يَرْتَادُهُ الناسُ في العالم، وله نوافذ تطل على حركة المواصلات المائية وضياف النهر كستائر راقصة من أضواء مُلَوَّنة.

إنها مدينة ذات ثروة حقيقية تلك التي تستطيع أن تُجْري كُلَّ هذا التغيير. فمتوسط الدخل في المدينة يزيد عن عشرة أضعاف الدخل خارجها، وهناك طبقة وسطى كبيرة يبلغ دخل الفرد فيها 10.000 دولار أو أكثر في السنة. وقد سَمَّى الناسُ المالَ الذي يَكْسِبُونَهُ غير الدخل الذي يَصْرِّحُونَ عَنْهُ «مصادر إضافية»، ويبدو أن كثيراً من الناس يملكون هذه المصادر. وتزدحم على الرصيف وعلى الطرقات المرتفعة سيارات خاصة تكلف أُلُوفاً أكثر مما تكلفه في الولايات المتحدة وأوروبا. حيث تفرض بلدية شنغهاي على السائقين دفع 5.000 دولار

ثمن إجازة لشراء سيارة. وبرغم ذلك، فإن الأنواع الراقية تُطلب مُسَبِّقاً. وما كان الإقبال على الشقق الخاصة، وكثير منها يكلف 10.000 دولار وربما أكثر، ليحدث في مدينة ليس لها موارد إضافية كثيرة. إنه ازدهار يُموّل ازدهاراً. لقد ارتفعت أملاك شنغهاي ارتفاعاً سريعاً أنشأ طبقة مالية جديدة في المدينة. فقد ارتفعت قيمة أملاك السكان المحليين الذين يملكون ما يكفي من المال والجسارة لدخول سوق الإسكان في أواسط تسعينيات القرن العشرين وأواخره 20 بالمئة على الأقل سنة بعد سنة. وتضاعفت قيمة كثير من العقارات في أقل من ثلاث سنوات. وأقبل الناس على شراء المزيد. إنهم يبيعون قليلاً ليشتروا المزيد. وقد ثارت فضيحةٌ محليةٌ على أخبارٍ بيّنت أن ثلث شقق شنغهاي الجديدة الفخمة قد اشترت ثم بيعت قبل أن تسكن. وقد أدى ذلك إلى طفرة ثراء لشريحة من السكان الشباب في شنغهاي لا يعرفون من أين أتت ثرواتهم، كأنهم إذا رفعوا أيديهم في الهواء يأتئهم المال طائراً.

وكان من أسباب انتصار الحزب الشيوعي نجاحه في نشر التداوُل السهل للغة الصينية بين معظّم سُكَّان الصين. ويَتَمَن أهل شنغهاي اليوم اللغة الصينية، غير أن الوافدين إليها من شتّى مناطق الصين يَدْرُسُون أوّل مرّة لهجة شنغهاي المحلية، وقد بدأت الكتب والمعاجم التي تساعد الناطقين باللغة الصينية الرسمية (الماندارين) تلتقط اللهجة، وأخذت طريقها إلى مكاتب المدينة. وازدهرت مدراس تعليم لهجة شنغهاي. كل ذلك لأن طبقة شنغهاي العليا من المديرين في المدينة يتحدثون فيما بينهم بهذه اللهجة، وفي حضور المسؤولين والعمال والمديرين الأجانب. وتوحي الإيماءات والنظرات للآخرين أن من يتحدثون بهذه اللهجة يُخفون أسراراً، ويَعَجَّبُ الأجانب من الأمر، فصارت مواد تعليم اللغة تُعرض للأمريكيين والأوروبيين الراغبين بشرائها.

إن الغرض من تعلّم اللهجة المحليّة هو أن يُحيط المرءُ بكلِّ جزءٍ ممكِنٍ من طاقة المدينة. ازدهرت شنغهاي في فترة الاستعمار [المعروفة بحرب الأفيون]

بتعاطي الناس الأفيون فأدمنوا عليه. فصارت مُخدرات شنغهاي طاقةً تشدُّها جماهيرٌ كبيرةٌ من السكان الذين يتدققون على المدينة لأخذ نصيبهم منها. ويتقدُّ شبابُ شنغهاي تفاؤلاً بعيش رغد يوم تضاعف الاقتصاد المحلي، ثم تضاعف أضعافاً مضاعفةً.

وإن وراء الرصيف ما تكاد تراه من المركب، فتجد المدينة تندفع وراء جميع الحدود شمالاً وجنوباً وغرباً. فقد زحفت رافعاتُ البناء بعدد كبير إلى شنغهاي من أنحاء العالم المُختلفة في أواخر الثمانينات، وتمددت حدودها في عَنان السماء. فقد أُسِّسَ أكثر من خمسة آلاف بناء جديد يرتفع كل بناءٍ خمسة عشر طابقاً سنة 2004م.

وإذا كان النهرُ خَيْرَ مكانٍ تَنْظُرُ مِنْهُ إلى المدينة، فليست المباني العالية أفضلَ مكانٍ تَنْظُرُ مِنْهُ إلى المدينة. فمن هذه الارتفاعات يرسل المرءُ بصره عبر غمامةٍ مقيتةٍ من سخام smog بني اللون تطفو على خط الأفق كالسحابة التي تُخَيِّم على حَمَامٍ عاملٍ منجم فحم. وإن أوضح مشهدٍ لشنغهاي تراه في قاعة عرض التخطيط المدني لشنغهاي. وإن من التحف الخيالية الغربية عن حديقة رينمين (الشعبية) Renmin (People's) Park، رَدَّ شنغهاي الاحتفالي على ساحة تيانانمين Tiananmen Square، والقاعةُ عُلْبَةٌ بيضاء زجاجية، بحجم متجر كبير من متاجر المدينة، يعلوها أربع قباب عملاقة على شكل خيام سيرك مقلوبة، فيجعلها من أبهى مباني المدينة.

وقد يرى المرءُ في الداخل مدى ما تمحو شنغهاي من ماضيها المتواضع وبناء مستقبل رفيع. فيجد في الدور الثالث نموذجاً مصغراً للمدينة كُلِّها، يشمل جميع مبانيها كما هي في مواضعها أو كما هو مخطط لها، وقد حُوِّلت إلى برج صغير لا لون له. ويغطي الجسم مساحةً تُعَادِلُ ملعب كرة السلة، ولا يزيد ارتفاع أي بناء عن عشرة سنتيمترات. فأَيُّ مدينةٍ في العالم تأخذ قسماً من عقاراتها القيمة متخفية حديقته الرئيسية وتخصصها لبناءٍ يُمَجِّدُ خطط قادتها المدنية

للمستقبل؟ فقد يكون في مدينة أخرى صُورٌ لمخططات المستقبل على جهاز كومبيوتر، ومجسم تحت الزجاج في دار البلدية أو متحف للعلوم، ولا يُفردُ له بناءٌ كاملٌ. أما في شنغهاي، فإنك تجد الدعاية للمدينة تطالها حُمى الفخامة، وتتجح في ذلك. وعندما تصغر المدينة المزدهرة إلى حجم دقيق فإنها تبدو كأنها حياً يمتد على الأرض، ويتلاشى أفقها وراء مجال البصر.

ويسير سُكَّانُ المدينة على رصيف مُرتَفَعٍ يُحيطُ بالمجسم باحثين عن مَوَاقِعَ بيوتهم، أو المباني العالية التي حَلَّتْ محل بيوتهم. وقد يبدو المجسم مختلفاً كله عن هيئته هذه قَبْلَ زَمَنٍ غير بعيد. فقد عاش الناس في شنغهاي، وكَبُرُوا في جوار مدارس (كان مُعْظَمُهَا قُصُوراً لِنُخْبَةِ الأَجَانِبِ في المدينة)، ودكاكين صغيرة، وباعة مُتَجَوِّلِينَ، وبيوتاً مُتْرَاصَةً من طبقتين أو ثلاث، تَضُمُّ كلها تجمعات متألّفة من السكان. كان الأولاد يلعبون بالكرة، والأمّهات يَنْشُرْنَ غَسِيلَهُنَّ، والأجداد يَلْعَبُونَ مهجنج mah-jongg أو يجلسون مع أقفاص عصافيرهم. أما اليوم فيذهب الفتيان والفتيات إلى مدارس في مدنٍ أُخْرَى أو خارج البلاد، ويفادرون المتخرجون المدينة للعمل ويعودون إلى بيوتهم بعد سنة أو سنتين ليجدوا مكان البيوت الصغيرة مجمعاً تبلغ مساحتها مساحةً مساحة الأمم المتحدة في نيويورك. وهذه التجربة لا تؤدي إلى تشتت واضح فحسب، بل تُخَلِّفُ شعوراً بأن المدينة زائلة، مهما بُذِلَ من جُهدٍ في إعادة بنائها، وأن الذي سيبقى هو طموح شنغهاي فقط.

وتَشُدُّ الأنظارَ قاعةَ المعارض في حديقة رنمين Renmin، حيث مسرح المدينة الكبير الذي صمّمه فرنسي وافتتح سنة 1998م يُشَبِّهُ مركز بومبيدو Pompidou Center [في باريس] وقد أعيد بناؤه على شكل معبد صيني. وتجد عبر الشارع متحف شنغهاي الدائري، المبني من الجرانيت الإسباني الوردِي، وقد صمّم على شَكْلِ مركب برونزي صيني قديم، بقبابه وشكل قبضاته. وكان المتحف أول متحف صيني يُخَطِّطُ على النمط الأمريكي الحديث. وقد دُعي للتبرع الأغنياء، وبخاصة أصحاب الملايين من مهاجري الصين الذين يقيمون وراء البحار، والذين يرغبون

بتقديم شيء لوطنهم الأم - عَلَّهُمْ يَجْنُونَ شَيْئاً بالمقابل. إنه المكان الذي يشعر فيه السياح الأجانب بالراحة القُصوى في شنغهاي، فيربطون عظمة الصين الغابرة بالحاضر. وَيَتَجَوَّلُ فوج من الأجانب في الصالات، يُتَعَبُّهُمُ فارق التوقيت، وتَبَاطُؤُ الزمن، وخمسة آلاف سنة من الاستعراض الإمبراطوري.

كَيْفَ غَزَتْ تايوانُ شنغهاي

لم ينمُ كُلُّ طموح شنغهاي في داخلها، بل على خلاف ذلك. فبرغم أن القصد من الجسم في قاعة عرض تخطيط المدينة إعطاء انطباع أن المدينة تتحكم بمصيرها، غير أن المشهد من الخارج يعكس مدى ما أسهمت الطاقة والمال الأجنبيان، ومواهب الطبقة العالمية التي تتدفق على المدينة في إعادة بنائها. وإن إحدى مناطق شنغهاي التي كانت في يوم مضى خارج مجال البصر، أصبحت الآن فوق خط الأفق، وتضم أحدث مَعْقَلٍ للأجانب في المدينة، موقع ولادة شنغهاي الجديدة.

وبدأ الأجانب يَتَدَفَّقُونَ ثانيةً في التسعينيات، فأعيد بناءً منطقة كاملة من المدينة هي منطقة جوبي الجديدة Gubei من أجلهم. أما القادمون الجدد فقد كان شعار الترحيب متكرراً - بل يَبِزُّ - وفرة تايبي Taipei وهونج كونج Hong Kong ومدناً آسيوية أخرى. حيث انبثقت تجمعات سكنية فاخرة ضخمة بحجم فنادق لاس فيجاس العملاقة وفخامتها. وبرغم أن تجمعات جوبي تبعد عدة كيلومترات عن الرصيف، غير أنها كانت - مع تجمعات ناطحات السحاب الجديدة الأخرى في شنغهاي - كبيرة جَعَلَتْ المباني القديمة تبدو صفاً من البيوت الريفية. ومثلما لَبَّتْ المستوطنات الدولية في شنغهاي القديمة الحاجات الشَّخْصِيَّةَ للأوروبيين واليابانيين، فإن جوبي الآن مدينة داخل شنغهاي تقدم صورة من آسيا المزدهرة التي تمتد إلى خارج الصين.

ولعل ما يدعو للتساؤل أن نجد كتب الأدلة السياحية لا تتطرق لذكر جوبي. فكتاب Lonely Planet Shanghai يصفها بتسع جمل؛ ولا يذكرها كتاب Let's Go: China أبداً. إن ما يغلطونه اليوم قد يكون مكاناً غير عادي للسياح في المستقبل. ومثلما كانت شنغهاي القديمة، فإن جوبي مكان يُشبه امتيازاً أجنبياً، واستيراداً كاملاً لنمط حياة غريبة ابتدعت من أجل الأجنبي ومن قبلهم.

كانت الموجة الأولى من القادمين الجدد تحمل عائدتين من نوع خاص حقاً، إنهم «صينيون ما وراء البحار»، قَدِمَ مُعْظَمُهُم من تايوان، وهذا ما جعلهم إضافة غير عادية على المشهد المحلي. وإن حكومتهم في تايبي Taipei لا تحمّل وضعا رسمياً في الجمهورية الشعبية، وإنما أَحْضَرُوا معهم المال والخبرة؛ أمران لم تكن شنغهاي لتقاومهما. فأقامت شنغهاي الرسمية مكتباً خاصاً كقنصلية أمر واقع للتايوانيين، تقدم لهم ما تُقدِّمه حكومة لمواطنيها ذوي الوضع السياسي الأقل ضبابية. ويصعب تحديد عدد التايوانيين في شنغهاي، ولا يستطيع إحصاءهم المكتب. ويتراوح الرقم الرسمي بين 250.000 و 500.000 فرد. غير أن الرسميين في شنغهاي يستطيعون تحديد عدد الأعمال التايوانية في المدينة. فهناك أكثر من خمسة آلاف منهم، يستثمرون أكثر من 10 بلايين دولار في استثمارات أجنبية تدخل المدينة. كانت الأعمال التايوانية ترحل إلى الصين بحماسة مُخَلِّفة في تايوان خوفاً شديداً من أن يتداعى اقتصادها مع هجرة المال والخبرة إلى برّ الصين.

فكم يغير الاستثمار الأجنبي من المشهد للناظر إليه من نافذة قارب في النهر؟ لقد كان في المدينة، مع انسلاخ سنة 2003م، أربعة عشر ألفاً وأربعمئة شركة يملكها كلّها أجنبي، إضافة إلى 13.000 من الأعمال التي تضمنها أموال أجنبية. فقد جذبت المدينة سنة 2004م أكثر من 12 بليون دولار في استثمارات أجنبية مباشرة، كان الجزء الأكبر منها لصناعات من أجل التصدير بخاصة للولايات المتحدة. وبكلام آخر، جذبت شنغهاي بمفردها مقدار الاستثمار ذاته

الذي جذبته إندونيسيا كلها، البلد الذي يحتل المرتبة الرابعة في كثافة سكانه في العالم، والمكسيك، البلد الذي يفترض أن تحوله اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية North American Free Trade Agreement إلى مغناطيس يجذب رأس المال العالمي. والصينيون وراء البحار، هم أكثر المستثمرين حيوية، يقدمون أكثر من نصف المال الأجنبي الذي ينفق في تأسيس الأعمال. حيث بلغت حصتهم في أوائل تسعينيات القرن العشرين 70 بالمائة تقريباً.

وما زال سهلاً أن تدرك الحمى التي ألهبت مستثمري المدينة الأوائل بعد مُضيّ سنوات على ازدهار شنغهاي الاقتصادي. فالاحتكاك المباشر بالصين يغير نظرة المرء إلى الممكن والمتاح. والرحلة النهرية وحدها تثير الخيال، وتحرك كل المخططات والمشروعات لاقتناص الثروة من مشروعات الآخرين وجزء يسير من تجارة هذا الحشد الكبير إليك. إنها أمور قد تبدو، ضمن أطر أخرى، مُنفرةً، نجدها هنا متألفة. فهناك حشد محقق واضح للعيان، والبصمة السياسية للحزب الشيوعي تحيط بكل شيء، وتُجبر المدن وتشرها نُشراً عشوائياً؛ ورغبة مشتركة ودفينة في مقايضة الوقت بالمال، مهما كانت الكلفة الاجتماعية لذلك. فتبدو، هذه السجايا على البعد، كلها في الصين كالشياطين. غير أنها قد تُسيطر على تفكيرك إذا اقتربت فتظهر لك غنى. فكم تَخَلَّت بلدان عن نظرتها إلى العالم عندما دخلت الصينُ المشهد.

فَتَخَيَّلْ أثر هذا الضغط النفسي على التايوانيين، الذين كانت الصين دائماً نُصبَ أعينهم. وتناضل الآن الدولة الزائفة على الجزيرة التي مالت إلى الديمقراطية في أمر الاستقلال وتدرج تعامل العالم مع بر الصين. إذ تفرض فرصها عليها إعادة النظر في هُويّتها. وانظر في التعقيد السياسي لمزج درر تايوان الاقتصادية مع فرص الصين الفسيحة. فللتايوانيين كل الحق في أن يخشوا على روح تايوان الديمقراطية الجديدة المزعجة. وتُلح الحكومة الشيوعية على أن يُنكر التايوانيون الذين اختاروا إقامة أعمال في بر الصين تطلعات القيادة التايوانية

إلى الاستقلال. ويأتي التوجيه أشبه بطلب أب يعرف ثروة أبنائه وارتباطاتهم الاجتماعية، وكذبة الهوية ضمن العائلة. وفي أحداث الصين المثيرة، نجد آباءً يطردون أبناءهم وبناتهم، غير أن قلوبهم ترقُّ بما يكفي للترحيب بمصالحة طال انتظارها، أو يعيشون المأساة عندما يدركون الأمر متأخرين. ويتساءل أهل البر الرئيس والتايوانيون، متى يغير الآخر آراءه؟ فالصين الشيوعية لن تتغير أبداً لأسباب تتعلق بتايوان. وربما تتغير تايوان وتقترب من الصين الشيوعية، غير أن الرهان على ذلك ضعيف جداً.

لقد سافر أكثر من مئة ألف تايواني إلى موطنهم للتصويت في انتخابات الجزيرة سنة 2004م، وكان كثيرون منهم يمارسون حقهم الانتخابي أول مرة في حياتهم. فَمَنَعَ الصينيون الاجتماعات السياسية للتايوانيين في الصين خشية فتح باب نقاش استقلال تايوان. غير أنهم أسأؤوا التقدير. فالتايوانيون الذين يعملون في الصين لا يميلون إلى مؤيدي الاستقلال، فهم يعيشون حالة فريدة. والتايوانيون في شنغهاي مؤمنون يراهنون على الصين الأكبر، وليس على صناعات قليلة الأجر فقط، تستطيع أن تنهض وتنقل في نزوة خاطفة إلى عمال محليين قليلي الأجور. ولعل الأهم هو أن شنغهاي وطن جديد للخليط التايواني العالمي الرائع. وعندما يأتون إلى الصين فإنهم لا يأتونها بدولارات استثمارية فحسب وإنما يحملون مزيجاً من التكنولوجيا المتطورة، ويقع في ذلك المزيج ممارسات تجارية، وشبكة دولية مرتبطة بأفضل شركات العالم، ومصارف تايوانية وشركات تأمين وضممان، ومختبرات بحث عالية التكنولوجيا.

وهكذا أيضاً حال حشد شباب ذوي تطلعات دولية، الذين يتمتعون بأسلوب وطاقة إبداعية وأسلوب وسَطٍ بين شجاعة قوة البر الصيني الصناعية، وبين ما هو ضروري وغير ملموس من اعتدال التكنولوجيا العالمية. وأما شباب الصين فيما وراء البحار - الذين وُلِدوا لآباء من الصين؛ وشَبُّوا في تايوان أو هونج كونج، أو ربما في كليفلاند، أو فانكوفر، أو ساواباولو، أو سَيِّبِريا الشرقية،

الذين تَعَلَّموا في الولايات المتحدة، أو أستراليا، أو بريطانيا العظمى- فيعدون شنغهاي نسخة عن باريس عشرينيات القرن الماضي. وصحيح أن بيكاسو Pi- casso غير قادم، وإنما تتحول مناطق المخازن في شنغهاي إلى صالات عرض، بينما تأتي أستوديوهات السينما من هوليوود أو هونج كونج وسواهما إلى هنا بمجموعة من رجال الأدب والتكنولوجية والشخصيات المرموقة الأنيقة الذين لم يسبق للصين أن عرفتهم من قبل.

لم تعد منطقة الجوبي Cubei للتايوانيين وحدهم فقط، بل صارت تُؤوي الكوريين، واليابانيين، وسواهم من صينيي وراء البحار، وبخاصة أولئك الذين يأتون من جنوب شرق آسيا وهونج كونج. وهناك مَعَقِلٌ لأبناء شبه القارة الهندية يتكوّن في إنديا تاون India Town. وَيَفْخَرُ الجوبي الآن بمخازن عصرية ومطاعم ذوات خمس أدوار تتألف من غرف خاصة، ومحلات مُصمَّمين، وصالونات راقية، حُدِّتْ أسعارُها كُلُّها بعين مغمضة عن تكاليف المعيشة المحلية المنخفضة.

شنغهاي

إن الصُّحْبَةَ هي أحد أسباب الراحة التي يَلْتَمِسُها القادمون الجُدُد إلى شنغهاي، وقد تحول الجوبي إلى منطقة قادرة على استيعاب عدد متزايد يأتي إليها من مَحْظِيَّاتٍ «وزوجات ثانيات» سعيدات. ويستطيع المرء أن يلحظ نساءً صينيات خلال النهار، ارتبَطْنَ برجال، معظمهم صينيون، يعيشون في المدينة لمتابعة عمل ما، ويشترون للنساء ثياباً من الماركات الشهيرة، والأحذية ذات كعوب عالية، وحقائب يدوية فاخرة. فالجنس مازال من مُغْرِيَّاتِ شنغهاي. وتفاوت الثروة بين الوافدين والأغنياء المحليين من جهة، والعدد الجَمُّ من السكان الذين يبحثون عن سبيلٍ للصعود من جهة أخرى، كلها تُؤلِّدُ ما يَتِيحُ جميع أنواع الاتصال. وما انخفاض مبيعات الجنسنج Ginseng المحلية سوى مؤشر بسيط على عدد الرجال الذين تحولوا إلى الفياجرا Viagra، التي لم تُعَدْ تحمِّيها قوانين حماية براءة العلامات التجارية في الصين لشدَّة الإقبال عليه.

وهنا، يستطيع كهل صيني عائد من وراء البحار أن يجد فتاة راغبة، ويستطيع ميكانيكي ألماني فظّ مفتول الساعدين أن يجد فتيات لونات رشيقات لا يجدهنّ في وطنه، ويجد مهندسون غربيون باردون فتيات حارّات يُضحكن أصدقاءهنّ في الوطن. ويمر فيض من سيارات بورشه Porsche و SUV الرياضية المكشوفة أمام نوادي شنغهاي المزدهمة، تجري على أنغام موسيقى الراب الصينية. ويجلس وراء مقود هذه السيارات سمسرة سمانّ قصارُ القامة يتعشّون كل ليلة مع زبائن ويسمرون بعد ذلك مع صُحبة، أو «قوارين» [جمع قارون] صغار اشترى لهم آباؤهم ذوي العلاقات والنفوذ أسلوب حياة صيني يشبه طراز حياة بلّ إر Bel Air. ترى يداً على المقود، والثانية على أحدث هاتف قيمته 800 دولار، يقودون سياراتهم ببطء ويتصلون بأصدقاء لهم في الداخل لتقدير المشهد هناك. وتقف أمام أبواب النوادي عصابات من رجال فظين يشتبكون كل ليلة في مشاجرات لإبعاد أبناء البروليتارية [الطبقة العاملة] القذرين اللجوجين الذين يُسرفون في الشراب المُسكر المحلّي، في مكان غير مرغوب بوجودهم فيه.

ويصيحون: «هذه هي الصين! ومن أنت الذي يطردني؟ إن أجودَ عاهرات شنغهاي هنا في الداخل وإني أريد أن أُجربَ عيّنةً منهن!»

وتأتي الشرطة كل ليلة، وهي التي لا تكاد تُرى في المدينة، لتطرد الغاضب بعيداً. وإن مُقْتحمي البوابة مُصيبون، فأجود عاهرات المدينة تجدهن في الداخل. ويحرص تلاميذ الأخوات هِلْتُنْ Hilton Sisters على أن تكون ملابسهن ضيقة لها فتحات في مواضع حساسة، وأن تكون كعوب أحذيتهم بطول تانيرهن، وقد صَفَّضْنَ شعرهنّ وجَعَلْنَ زينتهنّ على طراز مراكب الأحلام الآسيوية. يوقض القلوب ويكسبن نصيبهن من الاستثمار الأجنبي المباشر.

وثمة أولئك الذين يرغبون في البحث عن رفاق من جنسهم، في فورة الشباب، يتصفون بنُعمَةٍ ودِفءٍ. وترى مشهد الشذوذ الجنسي في شنغهاي نشيطاً، وبانكوك لا تبعد أكثر من حزمة زمنية واحدة. فالجنس يستقطب الأجنبي إلى الصين، وإنما ليس بقدر ما يستقطبه المال.

أبْنِيَّةُ صَارُوخِيَّةٍ

إن المفارقة التاريخية المذهلة عن المركب ليست في تصميمه على شكل التتبن أو خدمته البطيئة؛ وإنما هي اللوحة التي تصف الجولة النهريّة للزبائن. إذ تعدُّ بأجمال الرحلات المائية في الصين، حيث تكشف في كل دورة مشاهداً طبيعياً وافرة. ويَعكِّس استمرار المشهد البهيج تغرُّ المشروع الحكومي، ويظهر أن اللوحة بعيدة عن واقع المدينة، مثلما هو حال جولة يقارب حَوْلَ مناهاتان Manhattan التي مازالت تذكر أعجوبة قبر جرانت Grant's أو الذروة الرائعة لبناء وُولُورث Woolworth وتَهْمَلُ جمال خط الأفق كُله ومنظر المدينة الكبيرة الذي يُعْطِي المشهد. أما اليوم، وبعد انقضاء عشرين سنة على تدشين ذلك القارب، فلا مَفَرَّ من منظر مدينة شنغهاي وما يحيط بها من مصانع. وتطل المدينة وصناعتها من أعلى نهر هوانجبو على التبينات مع كل منعطف.

ولا يَنْجَلِي هذا التباين في موضع آخر أكثر من بودُنج Pudong، وخط الأفق الزجاجي في شنغهاي حقاً. وترتفع الأرض التي كانت من قَبْلُ حقولاً، عبر هوانجبو وبودُنج فغَدَت مُوازية لمركز مدينة ينمو نمواً لا يُصدِّق في القرن الحادي والعشرين، مُحَقِّقاً قراراً صدر قبل خمس عشرة سنة فصار مركزاً كبيراً بعد أن كان أرضاً سبخة منخفضة. ويُسمِّيها المسؤولون «صورة مصغرة لمعجزة الاقتصاد الصيني»، وهي في حقيقتها مثل المعجزة. إذ تُؤوي منطقة بودُنج حوالي ستة آلاف عمل أجنبي التمويل، وفيها ما يقارب ثلاثمئة من خمسمئة شركة ثروات عالمية Global Fortune (وعلى ضفة شنغهاي القديمة للنهر توجد مئة شركة أخرى). وتَسْتَعْلُ الشركات التجارية الأجنبية وضع بودُنج كمنطقة اقتصادية خاصة Special Economic Zone أو SEZ لِكَسْب تخفيضات في الضريبة وحوافز أخرى، منها، علاقات صداقة مع القيادة الصينية، التي شجعت المشروع. إن هذا النمو - الذي يشمل أبراجاً مُستدقَّة وأضواء نيون، وعرض أفلام فيديو من أعالي ناطحات السحاب، ومطاعم دوارة تعلو كمركبات فضاء أُخِذت من

صفحات مجلة أميزنج ستوريز (قصص مذهلة) Amazing Stories مشاريع تشبه قصص إتش جي ولز H.G. Wells حيث يُخرج المستقبل التكنولوجي المتطور الصينيين من وقائع الحاضر القاتمة. وهذا ما يجعل بودنج خير دعاية للأمل.

وقد تكون بودنج من أكثر الأعمال التافهة التي عرفها العالم. فمن أين أتى كل هذا المال لبناء ضاحية مدينة ستضاهي باريس في حجمها في زمن غير بعيد؟ لقد استثمرت حكومة الصين أكثر من 12 بليون دولار في إنشاء بنية تحتية لكي تتهيأ الأرض لمزيد من البناء. وإذا استثنينا تكاليف البنية التحتية البلدية، فإن طفرة البناء في بودنج، مثلها في ذلك مثل كثير من تطورات الصين الأخيرة، قد ضمنتها ثروة من المال العام أنفق وخصص دون اعتبار لجدوى الاستثمار الاقتصادية. ويبقى التفاؤل شديداً، فثمة جهاز اجتماعي كامل قائم ليؤكد بقاء التفاؤل عالياً.

فهل ينبغي أن يراهن ضد بودنج،؟ ربما لا. فهذه شنغهاي، حيث تنطلق المباني من الأرض مثل الصواريخ، وحيث الرجال يلتهمون فياجرا مزيّفة [مقرّصنة]، وحيث يندفع رؤاد المدينة وراء مشاريع تشعُ تفوقاً كلما ذكرت. فهم ينظرون إلى المباني والأشغال العامة قد ضُخمت لتكون الأكبر، والأعلى، والأطول، والأسرع، وكل ما له صفة الأفضل.

ويعد برج تلفزيون لؤلؤة الشرق Orient Pearl Television Tower المعلّم الأبرز في بودنج، فهو أعلى برج تلفزيون في آسية كلها، وثالث أعلى برج في العالم. فيشمخ في علوه حاملاً ثلاث كرات معدنية متناقصة في أحجامها، صُممت لتبدو كالجواهر. فأكبرها وأدناها صالة رقص وغناء كَرُوك karaoke، ويعلوها مطعم دوار، وأما الكرة الأصغر فهي منصة للمراقبة. ولما كان البرج قد بني سنة 1994م فإنه لم يعد يلائم مقام شنغهاي المتطور، لولا أن شعوراً عاطفياً مطلوب ليفيض عند بقاء مبانٍ ضخمة في مواقعها على مرّ السنين. وربما كان لها بريق بعد الحداثة، مطلقة العنان لخيال معماريي مباني شنغهاي الجديدة

في كَسْر أسلوب تقليدي دولي للاستمتاع بطراز مبانيهم. وَيُجِبُّ أدلاء السياحة في المدينة أن يشيروا عند رؤية البرج على نسق ما جسرين قرييين فيصورونه تَتَيْنَيْنَ يلعبان باللألى. وهناك أمام البرج مبنى آخر على نسق مُمتع. إنه مركز المؤتمرات الدولي، وهو بناء على شكل مستطيل مُنحن يضم قاعتين زجاجيتين كبيرتين أخذتا شكل العالم في نهايته. وبينما يَبِيْمُ قَارَبَ الرحلة شَطَرَ أعلى النهر، يَتَدَافِعُ الناسُ إلى الحاجز [السُّور] ليلتقطوا صورة لبرج التلفزيون الذي يعلو مركز المؤتمر، وتعلو مَسَلَّةُ البرج بكبرياء بين الكرتين الزجاجيتين. ترى هل أَغْفَلَ المَصْمُومون هذا الاحْتِمَالُ؟ أم تَرَاهُ آثارَهُمْ؟

وقد أدت توهو بيكتشرز Toho Pictures سنة 2004م أعلى مجاملاتها لِبُودُنْج، إذ جعلت بودُنْج موقع مشهد قتال مناخي في فيلم جَدَزِيلا: Godzilla: Final Wars. فيسحق البرمائي الكبير مدناً رئيسة كثيرة في العالم في ما قيل إنه فيلمه الوداعي، غير أن مشهد القتال الناري ضد التتين في شنغهاي كان أعظم ما في الفيلم. فيعطي برج تلفزيون لؤلؤة الشرق وضعا مُمَيِّزاً أعطاه من قَبْلَ فيلم كنج كنج King Kong لبني إمبايرستيت Empire State.

غير أن هذا ليس كل شيء. فثَمَّةُ برج آخر من الأبراج التي يمر في ظلها مركب الرحلة هو مبنى جِنْمَاو الفضي اللامع Jinmao، الذي يرتفع ثمانية وثمانين دوراً في بودُنْج على ضِفَّةِ النهر الشرقية. وتضم ناطحة السحاب، وهي أعلى بناء في الصين، فندق جراند هايات Grand Hayat، وهو أعلى نُزْلٍ في العالم. ويشبه مبنى جِنْمَاو القارب، فهو مطلي من خارجه برموز صينية، واستبدلت رؤوس التتين على سطحه الخارجي بإطار برونزي عُدواني المظهر يمثل عصر الدول المتحاربة Warring States Epoch أو دمية جسم آلي صيني. إنه نوع من ناطحات سحاب قوية غنية كانت تبنى في نيويورك وشيكاغو تُعَبِّرُ عن طموح المدينتين الذهبيتين، تُبَيِّنُ عن رغبة شنغهاي في أن تحتل مكانها بين أولى مدن العالم، وإنما بطريقة صينية خاصة لثقافة مالٍ عالمية. لقد صَمَّم

الرموز معماريون أمريكيون في شركة شيكاغو العملاقة سكدّمور، أُوينز أند ميرل Skidmore, Owens and Merrill، وهي التي صمّمت برج سيّرز Sears Tower [في شيكاغو]. وتبدأ أجور الغرف في فندق جراند هايات في شنغهاي من 240 دولاراً، أي ربع متوسط الدخل السنوي للفرد الصيني الذي اعتاد أن يدفع عشرة دولارات في الليلة في فنادق البلاد الكثيرة التي تقدم خدماتها للشريحة الأكبر من السكان الأقل دخلاً.

وليس هذا كل شيء. فالمشروعات المطروحة الآن التي ستنتهي العقد الحالي في منطقة شنغهاي وتتضمن أطول أبنية في العالم، وأكبر حوض للسفن، وأعلى عجلة حديدية على الرصيف، يبلغ طولها 197 متراً. أضف إلى ذلك مئات أميال من طرقات رئيسة داخل المدينة وحولها، وتوسعاً كبيراً في نظام قطارات الأنفاق الحديث ينطلق إلى مناطق من شنغهاي يُعاد بناؤها.

وثمة مشروع لمدّ أسرع قطار في العالم، إنه قطار مغناطيسي سابع يجري الآن على مسار واحد قصير بين ضفتي النهر الشرقية والغربية لينقل الناس إلى المطار الجديد. فقطار ماجلف Maglev الذي بلغت تكاليفه 1.2 بليون دولار، يسير بسرعة تقارب خمسمئة كيلومتر في الساعة بين شنغهاي وبيجنج. وقد بنى القطار التجريبيّ هذا شركتان صناعيتان ألمانيتان عملاقتان هما سيمنس Siemens وتيسن كروب Thyssen Krupp، مُحاولتَيْن بيّع تكنولوجيَّتيهما للصين، غير أنهما قد لا تُوفّقان في الحصول على مشروع أكبر. فللصين قطاراتها عالية السرعة التي تُصنّعها، بثقة العصر وبالتدق السهل للتكنولوجية الأجنبية إليها، تلك التي اشتراها الآخرون ودفعوا ثمنها. وقد كانت اليابان قبل أربعين سنة مُتتجاً مُقلداً منخفض الكلفة، فساهم قطارها السريع، شينكانسن Shinkansen في وضع البلاد في موقع ريادة التكنولوجية. وقام القطار بأول رحلة له سنة الألعاب الأولمبية في طوكيو، فكان نجم صور براقّة طُبعت وُبثت عبر العالم، فأظهرت البلاد في أوجها، وحوّلت الأولمبياد إلى مَشهدٍ أخاذ. وسيبدأ الخط السريع

الذي يربط شنغهاي وبيجينج رحلاته سنة 2008م، مع احتمال تأخير في موعد إنجازه، وهي سنة أول أولمبياد صيفي في الصين. وعندما يوازن قادة الصين بين جنون إنفاق 1.2 بليون دولار على مسار تجريبي لقطار سريع طوله أربعة وثلاثون كيلومتراً، وبين إنفاق 16 بليون دولار على نظام نقل داخل المدينة، فإنهم يرفضون منطقتاً يقول إن المال خير ما ينفق على برامج تخدم مئات ملايين البشر الذين لن تكون تذكرة سفر في قطار شديد السرعة رفاهية متاحة لهم. إن الاستثمار في مكانة عالية للأمة يفترض أن يجني الجميع أكله. وإن إقناع العالم بأن الصين تستطيع التفوق على اليابان يعطي ثمرات نفسية لا يشتريها مال.

وهذا ليس كل شيء أيضاً! فأباء المدينة يخططون لبناء ثلاثة جسور كبيرة وأربعة أنفاق للمواصلات، سيكون أحدها أطول نفق في العالم. وإن مشروع الجسر الوحيد، أطول جسور العالم يقع خارج شنغهاي، غير أنه يدخل ضمن مصالح المدينة. إنه الطريق الرئيس الذي خُطِّطَ لبنائه عالياً كلفته 1.4 بليون دولار، يصل الطريق الممتد في جنوب المدينة إلى خليج هانجزو Hangzhoo Bay فيقطع الجسر خمسة وثلاثين كيلومتراً، ليصل النهاية الجنوبية بمدينة سيسي Sixi بوابة مقاطعة زيجيانج Zhejiang، إلى جنوب شنغهاي المحشوة بالصناعة.

وتوثق هذه الضخامة بحرص كل يوم على الصفحات الأولى لصحيفة شنغهاي ديلي Shanghai Daily التي تصدرها الصحافة الحكومية باللغة الإنجليزية. إنها صحيفة سريعة بهيجة مُطعمّة بالأخبار المحلية، وبموجز لمنجزات الحكومة، وزيارات الدولة، وأخبار وكالات الأنباء عن أحداث العالم - ربما في الدانمرك أو تونجو- والتي لا يكون لها أهمية محلية في أغلب الأحوال. وتمتلئ سلال المهملات في قارب النزهة بنسخ من الصحيفة حتى قبل أن يُبحر القارب.

غير أن الصحيفة تستحق القراءة مرّة وثانية، فأخبارها - مثل معظم أخبار الصحافة الحكومية في الصين - تُعدّ مقياساً ومعرضاً لطموح الصين. وتسجل صحافة الصين كلَّ جهدٍ يُبدل، سواء أكان عاماً أم خاصاً، لدفع الصين إلى قمة

أي سباق تعلن عن دخوله. وتحمل أخبار الصين، طبعاً، رسالة «تصعيد السباق» التي تشجع الآسيويين، والصينيين بخاصة، على بذل جهود أفضل في مجالات شتى. وقد يصف موضوع الصحيفة الرئيس في أحد الأيام فوز صانعي أجهزة الهاتف الجوال الصينية في السباق ضد الأجانب، مصوراً الانتصار فخراً. غير أن الحساب مشدود، والبحوث التي يستند عليها مُستهدفة. فأجهزة الهاتف الجوال الصينية ليست رائدة السوق، وإنما يقول مستعملوها الصينيون إنهم يأملون أن تستطيع الأجهزة المحلية أن تسود السوق في مُقبل الأيام. ويكون الأمل أن تساهم عناوين الصحيفة في تحقيق تلك الأمنية.

وتملأ الإنجازات الشخصية الكبرى الصفحة الرئيسة أيضاً. فثمة موضوعات رئيسة تتحدث عن الفائزين الشباب في مسابقات للناطقين بالإنجليزية في الوطن كله. فتأمل لو أنّ صحيفة أمريكية حاولت أن تزيد مبيعاتها بنشر موضوع عن فتى أمريكي مجتهد تفوّق على أقرانه في مسابقة للمحادثة بالفرنسية فألقى خطاباً عن فضائل الأخوة الدولية. فالصحافة الصينية تنشر بانتظام موضوعات مثل هذه. ففي بلد يُعول كثيراً على منجزات الجيل القادم، حيث تضطر الأسر إلى الرهان على منجزات طفل واحد هو الذي تسمح لها الحكومة بإنجابه، لا شك أن يجد الأبوان والأجداد انتصارات أطفال الآخرين المبدعين أمراً مُمتعاً، ونشوة نصر في بلد يعطي علامات النجاح الجيدة والمسارات الأكاديمية الصحيحة ما يُشبه النشوة الجنسية. فالأطفال الأملعون يحملون مفتاح تفوق الصين، وربما استطاعوا يوماً ما أن يبنوا أعظم ما في العالم إن هم اجتهدوا الاجتهاد الصحيح. وليس ثمة شك في أنهم سيساهمون في بناء اقتصاد سيكون أكبر اقتصاد في العالم، إن سارت الأمور كما يشتهي الصينيون ويتوقعون، ويصبح أقوى قوة جيوبوليتيكية تتمتع بأعظم نفوذ في آسيا وربما في العالم.

وعندما تبلغ رحلة القارب نهايتها ويصدم قوس التنين برفق برصيف الميناء،

لا يملك المرء إلا أن يرى مصير الصين في مدنها في تبعية تايوان، وعودة صينيي ما وراء البحار إلى الوطن الأم. وتعد المشروعات الكبرى مقدمة عامة للهيمنة، وجزءاً من هيكل وطني يُبْنَى. وربما لا تكون مناظر الطبيعة من القارب في شنغهاي جميلة في عَيْنَيَّ من ينشد الراحة بعيداً عن أزيز محرك الصناعة المدنية الذي هو شنغهاي، لكنها تملك جمالاً خاصاً يراه الذين يعدون القوة الصناعية والفن المعماري طريقاً إلى عالم استعادت الصين مكانها الطبيعي فيه - في المركز، حيث هي موضع احترام، وربما تكون مصدر خوف أيضاً.

